في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجرا لا انهم عازموا على انهم لو ردوا لامنوا وقيل هو في
المنافقين وانه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه وقيل هو في اهل الكتاب وانه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ردوا الى الدنيا بعد وقوفهم على النار لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمعاصي وانهم لكاذبون
فيما وعدوا من انفسهم لا يفون به وقالوا عطف على لعادوا اي ولو ردوا لكفروا ولقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا
كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة ويجوز ان يعطف على قوله وانهم لكاذبون على معنى وانهم لقوم كاذبون في كل شيء
وهم الذين قالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وكفى به دليلا على كذبهم ولو ترى اذ وقفوا على ربهم مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال
كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقيل عرفوه حق التعريف قال مردود
على قول قائل قال ماذا قال لهم ربهم اذ وقفوا عليه فقيل قال اليس هذا بالحق هذا تعيير من الله لهم على التكذيب قالوا
بلى وربنا اقرار مؤكد باليمين لانجلاء الامر غاية الجلاء قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بكفركم او بسببه
قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله اذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب المقيم ولقاء الله البعث وما يتبعه حتى اذا جاءتهم الساعة غاية لكذبوا لا لخسر لان خسرانهم لا غاية له اي ما زال بهم التكذيب
الى حسرتهم وقت مجيء الساعة فان قيل انما يتحسرون عند موتهم قلت لما كان الموت وقوعا في احوال الآخرة
ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته
او جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة بغتة فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغتة او على
المصدر كانه قيل بغتتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا تعالي فهذا اوانك على ما فرطنا قصرنا فيها في الحياة الدنيا جيء بضميرها وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة
او للساعة على معنى قصرنا في شأنها والايمان بها كما تقول فرطت في فلان ومنه فرطت في جنب الله وهم يحملون اوزارهم
على ظهورهم كقوله فبما كسبت ايديكم لانه اعتيد حمل الاثقال على الظهور كما الف الكسب بالايدي الا ساء ما يزرون
بئس شيئا يزرون وزرهم كقوله ساء مثلا القوم وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو اي وما اعمالها الا لعب ولهو يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب
منفعة دائمة ولذة حقيقية وهذا جواب لقولهم ان هي الا حياتنا الدنيا وللدار الآخرة خير للذين يتقون لدوامها وخلوص منافعها ولذاتها وقوله للذين يتقون دليل على ان ما سوى اعمال المتقين لعب ولهو
وقرأ ابن عامر ولدار الآخرة افلا تعقلون اي الامرين خير وقرئ بالياء قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون معنى قد زيادة الفعل وكثرته
كقوله ولكنه قد يهلك المال نائله والهاء في انه ضمير الشان وقرئ ليحزنك من احزن الذي يقولون هو قولهم
ساحر كذاب فانهم لا يكذبونك وقرأ نافع والكسائي بالتخفيف من اكذبه اذا وجده كاذبا او نسبه الى الكذب
والمعنى ان تكذيبك امر راجع الى الله لانك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وانما يكذبون الله بجحود
آياته فاله عن حزنك لنفسك وانهم كذبوك وانت صادق وليشغلك عن ذلك ما هو اهم وهو استعظامك بجحود آيات
الله والاستهانة بكتابه ونحوه قول السيد لغلامه اذا اهانه بعض الناس انهم لم يهينوك وانما اهانوني ومنه قوله تعالى
ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله وقيل فانهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بالسنتهم وقيل فانهم لا يكذبونك
لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله وعن ابن
عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الامين فعرفوا انه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون وكان ابو جهل يقول
ما نكذبك وانك عندنا لمصدق وانما نكذب ما جئتنا به وروي ان الاخنس بن شريق قال لابي جهل يا ابا الحكم
اخبرني عن محمد اصادق هو ام كاذب فانه ليس عندنا احد غيرنا فقال له والله ان محمدا لصادق وما كذب
قط ولكن اذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت ولكن
الظالمين من اقامة الظاهر مقام المضمر للدلالة على انهم ظلموا في جحودهم ولقد كذبت رسل تسلية لرسول
الله صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على ان قوله فانهم لا يكذبونك ليس بنفي لتكذيبه وانما هو من قولك لغلامك ما اهانوك
ولكنهم اهانوني على ما كذبوا واوذوا على تكذيبهم وايذائهم ولا مبدل لكلمات الله لمواعيده من قوله ولقد سبقت
كلمتنا

كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ولقد جاءك من نبإ المرسلين بعض انبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة
المشركين وان كان كبر عليك عظم وشق اعراضهم عنك وعن الايمان بما جئت به ... ان كان كبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه واعراضهم عما جاء به فنزل لعلك باخع نفسك الا يكون احد مهتديا من اجنبتك ان
كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض منفذا تنفذ فيه الى ما تحت الارض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها
او سلما في السماء فتأتيهم بآية فافعل يعني انك لا تستطيع ذلك والمراد بيان حرصه على اسلام قومه وتهالكه
عليه وانه لو استطاع ان يأتيهم بآية من تحت الارض او من فوق السماء لأتى بها رجاء ايمانهم وقيل كانوا يقترحون
الآيات فكان يود ان يجابوا اليها لتمادي حرصه على ايمانهم فقيل له ان استطعت كذا فافعل دلالة على انه بلغ
من حرصه انه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا لعلهم يؤمنون ويجوز ان يكون ابتغاء النفق في الارض
او السلم في السماء هو الاتيان بالآية كانه قيل لو استطعت النفوذ الى ما تحت الارض او الرقي الى السماء لفعلت لعل ذلك
يكون لك آية يؤمنون عندها وحذف جواب ان كما تقول ان شئت ان تقوم بنا الى فلان نزوره ولو شاء الله لجمعهم
على الهدى بان يأتيهم بآية ملجئة ولكن لا يفعل لخروجه عن الحكمة فلا تكونن من الجاهلين من الذين يجهلون ذلك
ويرومون ما هو خلافه انما يستجيب الذين يسمعون يعني ان الذين تحرص على ان يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون
وانما يستجيب من يسمع كقوله انك لا تسمع الموتى والموتى يبعثهم الله مثل لقدرته على الجائهم الى الاستجابة بانه هو الذي يبعث
الموتى من القبور يوم القيامة ثم اليه يرجعون للجزاء فكان قادرا على هؤلاء الموتى بالكفر ان يحييهم بالايمان وانت لا تقدر على ذلك
وقيل معناه وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم اليه يرجعون فحينئذ يسمعون واما قبل ذلك فلا سبيل الى استماعهم
وقرئ يرجعون بفتح الياء وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه اي آية مما اقترحوه وقرأ ابن كثير ان ينزل بالتشديد والتخفيف وذكر الفعل والفاعل
مؤنث لان تأنيث الآية غير حقيقي وحسن للفصل وانما قالوا ذلك مع تكاثر ما انزل من الآيات على رسول الله لتركهم
الاعتداد بما انزل عليه كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عنادا منهم قل ان الله قادر على ان ينزل آية تضطرهم
الى الايمان كنتق الجبل على بني اسرائيل ونحوه او آية ان جحدوها جاءهم العذاب ولكن اكثرهم لا يعلمون ان الله قادر
على ان ينزل الآية وان صارفا من الحكمة يصرفه عن انزالها الا امم امثالكم مكتوبة ارزاقها وآجالها واعمالها كما كتبت
ارزاقكم وآجالكم واعمالكم ما فرطنا ما تركنا وما اغفلنا في الكتاب في اللوح المحفوظ من شيء من ذلك لم نكتبه ولم
نثبت ما وجب ان يثبت مما يختص به ثم الى ربهم يحشرون يعني الامم كلها من الدواب والطير فينصف بعضها
بعضها من بعض كما روي انه يأخذ للجماء من القرناء فان قلت كيف قيل الا امم مع افراد الدابة والطائر قلت
لما كان قوله وما من دابة ولا طائر دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن ان يقال وما من دواب ولا طير حمل قوله الا امم
على المعنى فان قلت هلا قيل وما من دابة ولا طائر الا امم امثالكم وما معنى زيادة قوله في الارض ويطير بجناحيه
قلت معنى ذلك زيادة التعميم والاحاطة كانه قيل وما من دابة قط في جميع الارضين السبع وما من طائر قط في جو السماء
من جميع ما يطير بجناحيه الا امم امثالكم محفوظة احوالها غير مهمل امرها فان قلت فما الغرض في ذكر ذلك قلت
الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الاجناس المتكاثرة الاصناف وهو
حافظ لما لها وما عليها مهيمن على احوالها لا يشغله شأن عن شأن وان المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم
من سائر الحيوان وقرأ ابن ابي عبلة ولا طائر بالرفع على المحل كانه قيل وما من دابة ولا طائر وقرأ علقمة ما فرطنا
بالتخفيف فان قلت كيف اتبع قوله والذين كذبوا بآياتنا قلت لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته
وينادي على عظمته قال والمكذبون صم لا يسمعون كلام المنبه بكم لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر فهم غافلون
عن تأمل ذلك والتفكر فيه ثم قال ايذانا بانهم من اهل الطبع من يشإ الله يضلله اي يخذله ويخله وضلاله لم يلطف
به لانه ليس من اهل اللطف ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم اي يلطف به لان اللطف يجدي عليه قل ارأيتكم اخرو

Copyright © King Saud University